دور المنهج الإسلامي في الدراسات الأنثروبولوجية
–دراسة حول خلق الإنسان و إبطال نظرية التطور–

الأستاذة فتيحة بن قو

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

المقدمة

في نهاية القرن الرابع عشر تقريباّ. بدأ الإسلام في الانتشار، وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين والازدهار. وقد تضمّنت هذه الحضارة : الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية (.) Darnell,1978

وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم .

ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم البلدان لياقوت الحموي. وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في الرابع عشر ميلادي مثل " مسالك الأمصار " لابن فضل الله العمري، و " نهاية الأرب في فنون العرب " للنويري .

وإلى جانب اهتمّام هذه الكتب بشؤون العمران ، فقد تميّزت بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصيّة، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية (حسين فهيم، 1986) .

إن الاهتمام بالإنسان، وبكل ما يختص به هو محور الديانات، ورسالات الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، والكتب السماوية، لكن وبما أن الكثير من التحريف والتزوير قد طرأ على الرسالات والكتب السابقة، فلم يبق لنا إلا مصدر واحد "ا **يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**" (فصلت: 42)، ألا وهو القرآن الكريم، وبذلك يصبح علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) علمًا إسلاميًا بامتياز، وضع أسسه القرآن الكريم، ووضحت هذه الأسس في الأحاديث الشريفة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم امتاز به الرحالة والمستكشفون والبلدانيون المسلمون، والذين جابوا مختلف البلدان من أجل البحث والمقارنة بين المجتمعات البشرية، وبذلك كانوا أنثروبولوجيين بمعنى الكلمة قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا.

ولقد قام هؤلاء العلماء المسلمون برحلاتهم اهتداءً واقتداءً بقوله تعالى "**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْق**" (العنكبوت:20).

وقوله تعالى "**وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَة** " (النساء:100).

لذا فقد طاف العلماء المسلمون العالم، ودرسوه جيداً، وسجلوا ودونوا كل شيء عن شعوبه، لذا فإن أسس وأهداف الأنثروبولوجيا الحديثة قد حقق أهدافها العلماء المسلمون قبل أن يظهر هذا المصطلح، وقبل أن يصبح علمًا واختصاصًا تُساق له النظريات، وتُكتب حوله الأبحاث، وله فروعه، واختصاصاته في الكليات، والجامعات.

ونحن وفي هذا البحث المتواضع سوف نحاول أن ندرس أبرز معالم هذا العلم في محاولة دراسة خلق الإنسان و الكشف عن بعض المعارف الخاطئة التي لا زالت للأسف تعم كل كتب الأنثروبولوجيا الطبيعية و الفيزيائية من أجل ترسيخ حقيقة كون الدين الإسلامي كان ولا يزال الرائد في كثير من الدراسات الأنثروبولوجية.

1–مفهوم الأنثروبولوجيا

أنّ كلمة أنثروبولوجيا Anthropology، هي كلمة إنكليزية مشتقّة من الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين : أنثروبوس Anthropos، ومعناه " الإنسان " و لوجوس Locos، ومعناه " علم ". وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ " علم الإنسان " أي العلم الذي يدرس الإنسان . (Nicholson, 1968)

ولذلك، تعرّف الأنثروبولوجيا، بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معيّنة .ويقوم بأعمال متعدّدة، ويسلك سلوكاً محدّداً؛ وهو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبّؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوّره عبر التاريخ الإنساني الطويل. ولذا يعتبر علم الأنثروبولوجيا العلم الذي يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله (أبو هلال، 1974)

وتعرف الأنثروبولوجيا أيضاً، بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق، ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة، ومن جهة أخرى أنّه الوحيد من الأنواع الحيوانية كلّها، الذي يصنع الثقافة ويبدعها، والمخلوق الذي يتميّز عنها جميعاً(الجباوي، 1997) .

كما تعرّف الأنثروبولوجيا بأنّها علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً (سليم، 1981) أي أنّ الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنّما تدرسه بوصفه كائناً اجتماعياً بطبعه، يحيا في مجتمع معيّن له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين .

فالأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية، فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطوّر الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسيّة واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية، وما إليها .. وكذلك عن الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنّوعة التي تشمل : التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق الفكر والإبداع الأدبي والفني، بل والعادات والتقاليد ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة، وإن كانت لا تزال تعطي عناية خاصة للمجتمعات التقليدية. (أبو زيد، 2001)

وهذا يتوافق مع تعريف / تايلور/ الذي يرى أنّ الأنثروبولوجيا : "هي الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان " إذ تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية. وبهذا المعنى، تتناول الأنثروبولوجيا موضوعات مختلفة من العلوم والتخصّصات التي تتعلّق بالإنسان .

2- المنهج القرآني وعلم الإنسان:

أ- المنهج القرآني

هو المنهج العقلاني الذي بواسطته نقرأ حقائق و نظريات علمية. فهو منهج أساسه و قوامه النظر العقلي و التدبر و التبصر و أعمال الفكر (خليفي الشيخ، 2014). و لعل، لهذا السبب انفرد

القران الكريم بمصطلح (العقل) (الشايف، 1998). في حثه على البحث عما هو كامن في الكون من ظواهر طبيعية. يقول تعالى " و يريكم آياته لعلكم تعقلون" (البقرة: 73)، "كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون" (البقرة: 242).

إن الله كرم كل إنسان بالعقل لأنه جوهر التمييز و أداة الإدراك وهو منشأ الفكر و العلوم. و فضّله على الكائنات و ميزه بالإرادة و القدرة على التصرف في الحياة. يقول تعالى : " لقد كرمنا بني ادم وحملناهم في البر والبحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا " (الإسراء. 70).

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم قد تضمن المعرفة الكبرى أو المعارف الأزلية. " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرن" (الأنعام: 38). مما يعني أن كل ما ذكر فيه هو حقيقة مطلقة غير قابلة للشك، و لكنها قابلة للبحث من أجل تحقيقها، وهذه هي مهمة الأنثروبولوجين بحيث أنهم مطالبون باستغلال عقولهم طبقا لما قرره القرآن الكريم و البحث و العمل من أجل معرفة أسرار الإنسان و الكون بصفة عامة، وهذا بطبيعة الحال بالاستعانة بالعلوم الأخرى بما فيها البيولوجيا و الفيزيولوجيا و علم الوراثة و علم الأجنة و علم الاجتماع و علم الآثار إلى غير ذلك من العلوم.

إذن فالحقائق الواردة في القرآن الكريم و السنة النبوية ليست من أجل الإخبار فقط، و لا هي من أجل التحدي العلمي الأعجازي فقط، و إنما هي فاتحة عهد الاجتهاد العلمي و العملي (شايف، 1998).

فالقرآن الكريم و السنة النبوية هما المصدران الرئيسان لكل علم و المنهج الإسلامي و الوسيلة التحفيزية للدراسات الأنثروبولوجية، بما فيها البحث في العمليات الخلقية و المختلفة. قال تعالى : "قل سيروا في

الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير " (سورة العنكبوت. 20).

ب– التعدد الشكلي

لقد اتسعت موضوعات الأنثروبولوجية بحيث شملت الدراسات المقارنة بين الإنسان و الحيوان و دراسة تنوع السلالات البشرية و الخصائص الوراثية للشعوب.

يمكن تصنيف الشعوب المعمرة لكوكبنا ضمن مجموعات وفق معايير مختلفة: العرق و الجغرافيا والسوسيولوجيا أو البيولوجيا. فعادة، لا يشبه هؤلاء الأفراد بعضهم البعض، فنقول إن هذه المجموعة السكانية هي متعددة الأشكال(Germanont, 1970).

تستعمل الأنثروبولوجيا تعدّد الأشكال الوراثي كوسيلة للوصف للعلا قات التي تربط الأفراد، سواء كان هؤلاء الأفراد ينتمون إلى مجتمع واحد أو إلى مختلف المجتمعات.

إن غاية تعدد الأشكال كمعيار أنثربولوجي، مرتبط إلى حد كبير بالتنوّع الوراثي للأفراد و بتوزيعهم في مختلف المجموعات البشرية، في هذه الحالة، فإن المعلومات التي يجلبها لنا تعدّد الأشكال الوراثي يمكن استخدامها للتعرّف على تاريخ تطور الشعوب البشرية. و لعل التنوّع بين الأفراد في وسط مجتمع ما ينتج عن اختلافهم الوراثي و تنوّع الأوساط التي تتفاعل فيها جيناتهم الوراثية.

حاليا، لا ينبغي تفسير مقاربة وراثية للمجموعة السكنية على انفراد بل يجب مقابلتها مع علوم أخرى بما فيها الأنثربولوجيا التي تمثل ملتقى تلك العلوم، كما تمثل اللسانيات أحد مقارباتها رغم غياب العلاقة المباشرة بين جينات الإنسان و لغته، إلاّ أنه هناك صلة وثيقة بين اللغات التي قد حدّدها علماء اللغة و التجمعات البشرية التي تم تحديدها من قبل الأخصائيين في علم الوراثة.و في الواقع إن العائلات اللغوية

و المجموعات السكنية ناتجة جنبا إلى جنب عن الأحداث التاريخية التي تفسّر إمكانية توافق التطور الوراثي و اللساني (Ruhlen, 1991 ; Cavalli-Sforza, 1994).

وهكذا فان التطوّرات الخاصّة بالجينات و اللغة بالإضافة إلى المعطيات الأثرية تمكن من استخلاص أصول الكائن الإنساني و كيفية انتشاره على كوكبنا.

وتأسيساً على ما تقدّم، فإنّ الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان، ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحيّة الأخرى من جهة، وأوجه الشبه والاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى.

وفي الوقت ذاته، يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام. فلا تهتمّ الأنثروبولوجيا بالإنسان الفرد، كما تفعل الفيزيولوجيا أو علم النفس، وإنّما تهتمّ بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس، وتدرس الناس في أحداثهم وأفعالهم الحياتية .

ويبدو أنّ التباين العرقي بين بني البشر، هو الخاصة البيولوجية التي تستأثر باهتمام العالِم الحديث، أكثر من سائر الخواص البيولوجية الأخرى عند الإنسان. ويبذل المصنّفون العرقيون محاولات دائبة للتوصّل إلى تصنيف عرقي مثالي. فكان من نتائج انشغال علماء الأنثروبولوجيا الجسمية بمشكلة العرق، أن اكتسب مفهوم النوع (العرق) رسوخاً أعاق التفكير بالكائن البشري ذاته. فالأصناف العرقية البشرية ظلّت، وإلى عهد قريب، تعتبر كيانات ثابتة نسبياً، وقادرة على الصمود أمام تأثيرات البيئة أو قوى التغيّر الفطرية (عيسى الشماس، 2004).

ويلاحظ أنّ التطرّف في تمجيد فكرة العرق، أدّى إلى فرض عدد محدود من التصنيفات الصارمة على بني البشر الذين يمتازون بتنوّع لا حدّ له، وأدّى بالتالي إلى زج الأفراد في هذه التصنيفات، بصورة تطمس صفاتهم الأصلية الخاصة. (لينتون، 1967، ص 46)

ومن هنا كانت أهميّة الدراسات الأنثروبولوجية في تحديد صفات الكائنات البشرية، وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيداً عن التعصّب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أية أصول علمية.

وإذا كان علم الأنثروبولوجيا، بدراساته المختلفة، قد استطاع أن ينجح في إثبات الكثير من الظواهر الخاصة بنشأة الإنسان وطبيعته، ومراحل تطوّره الثقافي و الحضاري، فإنّ أهمّ ما أثبته هو، أنّ الشعوب البشرية بأجناسها المتعدّدة، تتشابه إلى حدّ التطابق في طبيعتها الأساسية، ولا سيّما في النواحي العضوية والحيوية(عيسى الشماس، 2004).

وما التعدد الشكلي واللوني واللساني والثقافي والمعيشي إلا عنصر تنوع وإثراء وقوة للحضارة البشرية.

لقد سبق القرآن الكريم علماء الأنثروبولوجيا حيث ذكر التنوع أو التعدد الشكلي " **وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلْعالِمِين**" (الروم :22).

يقول الباحثون في الأنثروبولوجيا، إن مسألة اختلاف الألوان، واللغات، وغيرها، يرجع إلى اختلاف الدماء و هو مبني على نظرية (النشوء والارتقاء)، وقضية التطور في الأنواع، القائلة بانتهاء النسل في كل لون إلى غير ما ينتهي إليه نسل اللون الآخر، وبذلك يصبح لكل نوع أب رئيسي، أو (آدم) خاص بهم.

أما القرآن الكريم فجل آياته تشير إلى أن هذا النسل الحاضر من الإنسان – في كل مكان – ينتهي إلى ذكر وأب واحد سماه الله تعالى في كتابه (آدم)، وإلى أنثى وأم واحدة لم يسميها تعالى في كتابه، ولكن

الروايات تسميها (حواء)." إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء منهم الأبيض و الأحمر و الأسود و بين ذلك" (حديث شريف).

إذن يشير الإسلام أنه رغم اختلاف ألواننا و ألسنتنا إلا أننا ننتمي إلى أصل واحد وهو آدم عليه السلام."كلكم لآدم و آدم من تراب"

إن السبب الأساسي والرئيسي في جعل القرآن مرجعاً لتأصيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لكونه كتاب الإنسانية الخالد، والمرجعية الربانية في العقيدة والشريعة والسلوك، ولأن الدين الإسلامي هو دين الفطرة الإنسانية.

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (الروم:30.)

إن دراسة الإنسان من منطلق قرآني يمثل النظرة الحقيقية والموضوعية للمراد الإلهي، والنظرة الإلهية لبني البشر، نظرة الخالق، نظرة العارف والعالم بالجنس البشري المستوعبة لدقائق الأمور، ولأساسيات الخلقة، النظرة الشاملة والواضحة والمتوازنة المندرجة ضمن نظام دقيق لتسيير المخلوقات ليس فيه أي خلل أو قصور، ولا يعتريه العطب أو التعب أبداً.

"سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ "(يس:36).

"يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبا " (النساء :1)

إن ما يجمع البشر هو أكثر مما يفرقهم، وما تنوع الأجناس، والألوان، واللغات إلا آية من آيات الله تعالى، وما وضعها الله تعالى إلا لحكمة بالغة هدفها الوصول إلى التكامل الجمعي الإنساني الوحدوي، وهذا هو مصداق قوله تعالى:

"وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلْعالِمِينَ" (الروم: 22) وهذا إثبات للإنسان بأن كل ما علمه وسيعلمه لا شيء بالنسبة للعلم الإلهي، وللحكمة الإلهية.

وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً" (الإسراء :85)

"لا فرق بين عجمي أو عربي إلا بالتقوى" صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم.

"ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُون " (الأنعام :38)

2- خلق الإنسان

قال الله تعالى " أو لم يرو كيف يبدأ الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير(19) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير(20) "(العنكبوت). انطلاقا من هذه الآية الكريمة ، الأمر محسوم عند المسلمين بحيث علينا أن نأخذ العلم من الخالق عز و جل في معرفة قصة الخلق بكل أحداثها و مراحلها. و لقد بين الله سبحانه و تعالى كيفية خلق الإنسان في كثير من سور القرآن ك "البقرة" و "الأعراف" و "الحجر" و "الإسراء" و "الكهف" و" ص" و غيرها.

لقد حدد العهد القديم تاريخ خلق آدم بسبعة وثلاثين قرنا قبل المسيح علس. و كما هو واضح فان المنطق العلمي يكذب هذا الافتراض، إذ من غير المعقول أن تكون المسافة الزمنية التي تفصلنا عن سيدنا آدم هي كما حددها التقويم العبري عام 1975م حوالي 5736 سنة فقط (موريس بوكاي. ص 12 ، شايف، 1998). و لكن البحث العلمي يرفض هذا الافتراء التاريخي إذ هناك طرق عديدة للبحث في علم الإنسان.

لا ننكر أن علم الأنثروبولوجيا قد وصل إلى أمور هامة تتعلق بالإنسان من حيث جسمه و طبيعته البيولوجية، لكن سبق القرآن الكريم فذكر هذه الأمور في قوله تعالى " ولقد كرمنا بني آدم و رزقناهم من الطيبات و حملناهم في البر و البحر و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا". و هذا التفضيل قال عنه المفسرون عند تمييز الإنسان عن الحيوان بأنه يعيش منتصبا على رجليه و يأكل بيديه و ينظر للأمام. فهو يتميز بالتركيب الخاص للقدم و الحوض و السيقان و السلسلة الفقرية و اليدين.

لقد توصلت الأبحاث في الأنثروبولوجيا الطبيعية إلى تحديد صفات الإنسان حيث أنه يتصف بميزات عضوية خاصة، لا يشاركه فيها إي من الكائنات الحية الأخرى، وتتمّثل هذه الصفات في الجوانب التالية : (Ardrey , 1961, p.86) ذكر في (الشماس، 2004).

-انتصاب القامة والسير على قدمين اثنين.

-تركيب الرأس من حيث شكله ومكوناته.

-تركيب الجسم، من حيث شكله العام ومقاييس أطرافه ،الذراعين والساقين و مدى تناسبهما مع الأعضاء الأخرى في الجسم.

-محدودية المساحات التي ينبت فيها الشعر، وتحديد أماكن وجودها.

-فترة الطفولة الطويلة، مقابل قصرها عند الكائنات الرئيسة الأخرى كالثدييات.

لقد سبق القرآن الكريم كل هذه الدراسات حيث تقول الآية الكريمة "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" (التين. 4). لقد كرم الله الإنسان بالعقل و الفكر و إبداع الثقافة و بتكوين جسمي عضوي فريد من نوعه يتجلى في التركيب المخي المعقد الذي يفكر و يتذكر و يدرك،ففيه توجد مراكز الإبصار

و مراكز الإدراك ومراكز اللغة و بهذا التركيب المعقد يكتسب السيادة و السيطرة على جميع المخلوقات الأخرى.

يقول الله تعالى" و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أن أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين". إن الله عز وجل فضل سيدنا آدم أبو البشرية على المخلوقات جميعا بالعلم و ميزه بالعقل و الكمال.

أ- إبطال نظرية التطور

لقد استطاعت الأنثروبولوجيا أن تدرس الإنسان منذ ملايين السنين و استطاعت أن تصل إلى أن الإنسان هو الإنسان خلقه الله بشرا من آدم "كلكم لآدم و آدم من تراب".

لكن للأسف فان كتب الأنثروبولوجيا محشوة بخرافات داروين الذي قال بالانتقاء الطبيعي أن الإنسان خلق من غيره من الحيوانات التي هي أقل منه في الدرجة.

خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر نشر تشارلز داروين الكتاب الشهير لعالم الطبيعة والأحياء في عام 1858. يعد هذا الكتاب ثورة فكرية وعلمية هامة (C. Adarwin, 1809-1883) تأثرت بها دراسات الإنسان والمجتمع على حد سواء .نشر داروين كتابه بعنوان« أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي وحفظ السلالات المفضلة في التناحر على البقاء The Origin of) Species by Means of Natural Selection :([1].

لقد قام داروين بشرح عملية الانتخاب الطبيعي الذي يهدف إلى بقاء النوع بحيث تموت الأفراد الضعيفة و تبقى الأفراد القوية.

لقد حدد داروين خمسة عوامل طبيعية تؤدي إلى التطور و نشوء الأنواع و هي: الوراثة و التحول و التوالد و التناحر و البقاء للأصلح[2] . وفي إطار هذه النظرية توصل داروين إلى أن الإنسان لا بد و أن يكون قد بقي طوال تاريخه العضوي خاضعا لنفس العوامل التي خضعت لها جميع الكائنات الأخرى. و بعد أن قبلت نظريته من طرف الانثروبولوجين الطبيعيين، فكر في أن يطبقها على الإنسان ، فاستخلص إلى النظرية التي تقول أن الإنسان قد نشأ من صورة دنيا هي أقرب إلى القردة العليا، منها إلى أية صورة أخرى من صور الحيوانات الأخرى. و ليس معنى هذا أن الإنسان ينحدر أصلا من القردة العليا و لكنه يشترك معها في أسلاف بعيدة تنتمي إلى رتبة الرئيسيات. وقد قام هؤلاء الأنثروبولوجيون بالبحث في تاريخ هذه الرئيسيات عن طريق دراسة الحفريات و مقارنتها بأجسام الحيوانات الحديثة (نفس المرجع).
لقد توصل داروين إلى أن الإنسان كان يمشي على أربع و لكن مع التطور أصبح يحاول أن يدافع على نفسه ومن هنا استطاع أن يمشي على رجلين ويبدأ في النهوض، و بعدها بدأت جبهته تختلف و تتسع فأحدثت نموا في الدماغ حتى بدأ يمشي على رجلين. لكن تلاميذة داروين انتقدوا هذه النظرية بحيث أن اتساع الجبهة لا يعني تطور المخ و تطور مراكز الإحساس و بالتالي كيف تطورت مناطق اللغة حتى نطق الحيوان.

و إذا فرضنا أن الإنسان بدأ مع ظهور الحياة الأولى ، فان وجوده يرجع إلى 400 مليون سنة أو أكثر، أو قد يكون قد وجد بعد ذلك ، أو ربما لا يمكننا أن نحدد تاريخا لأول وجوده كانسان إلا بما يرجع بنا إلى ملايين عدة من السنيين.

وقد أمكن تتبع تاريخ الإنسان كانسان بالأدلة الكافية لإقناع العلماء لمدة مليون سنة مضت، و لكن هذا حد أدنى متفق عليه. أما قبل ذلك فان تطوره مهما يكن الحيوان الذي تطور منه يرجع إلى قدم لا يصل إليه حسبان البشر[3]. حيث جاء في نهاية استعراض عملية خلق الكون و مخلوقاته " فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكر و أنثى خلقهم" (تكوين 1: 27).

لقد ذكر القرآن الكريم التطور فقال "ما لكم لا ترجون الله وقاراً و قد خلقكم أطواراً" (13-14. سورة نوح).و أطوارا يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة ; أي طورا بعد طور إلى تمام الخلق ، كما ذكر في سورة " المؤمنون " . والطور في اللغة : المرة [4]

والعلم يقول أيضا إن الحصان ذا الحوافر احتاج إلى 50 مليون سنة كي يتطور إلى حصان بلا حافر، وعلى هذا فلو سلمنا بصحة كلام داروين فإن القرد يحتاج إلى ملايين السنين كي يتطور إلى إنسان، بينما يتحدث العلم عن 15 مليون سنة فقط هي عمر الإنسان. وإذا قلنا إن الإنسان يتحول إلى قرد فإن هذا ينفي أن الله قادر على أن يخلق من جديد.. لكنه سبحانه وتعالى حسم هذا الأمر فقال " أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير" (19. العنكبوت). وقال أيضا "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة". والله تعالى يخلق هذا البشر مرة أخرى يوم القيامة وكأنه سبحانه وتعالى يقول أنا أستطيع أن أفعل ذلك ولست بحاجة إلى أن يحدث التطور بين الكائنات. وهناك آية أخرى تدحض كلام داروين وهي "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع".. وإذا كان التطور صحيحا لذكر الله تعالى من يمشي على أربع أولا. ثم إن العلم لا يمكن أن يقوم إلا بالتجريب، فهل قام داروين بهذا التجريب وشاهد بعينيه، هذا محال وما كان كلامه إلا تخمينا وظنا، والظن لا يغني عن الحق شيئا.

لقد توصل العلم أن بعض الذرات المكونة للماء قد كونت بالصدفة الأحماض النووية والأمينية العملاقة ثم اشتركت هذه الأحماض بالصدفة أيضا في تكوين أول خلية جاءت إلى الأرض, ثم دبت بهذه الصدفة الحياة في تلك الخلية دون أن يعرفوا مادة الحياة أو يقولوا ما هي عناصر الحياة التي دبت في الخلية بحيث ينشأ منها كل هذا الخلق, فهل يصدق العقل البشرى أن ما يحويه عنصري الماء (ذرتي الهيدروجين و الأكسيجين) إلكترونات و بروتونات و نيوترونات يمكن أن يتراص ليكون خلية حية . لكن هذا الترتيب والتنسيق لهذه المكونات و الذرات لا يمكن أن يتأتى إلا بإعجاز خالق مبدع...

ويطلق العلماء على مادة الخلية الحية اسم البروتوبلازم... و عنصر الماء هو المكون الرئيسي لهذه المادة كما جاء في الآية الكريمة " الذي أحسن كل شيء خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين".(السجدة 9)

ثم أن العلم وصل إلى أن الماء هو مادة الحياة. و لكن العلماء عجزوا عن معرفة كيف يمكن لهذا الجزيء الذي يتكون من ذرتين صغيرتين أن يتحول إلى هذه الجزيئات العملاقة التي تتكون منها الأحماض الامينية و النووية و البروتوبلازم و مكونات الخلية الحية, ثم كيف تتحول هذه الجمادات إلى شيء حي يتحرك و يتنفس و يتكاثر و يتكامل مع الخلايا الأخرى.

إن خلق الإنسان في الإسلام أمر غيبي، لا يشهده أحد، إنما اختص به الله سبحانه و تعالى مصداقا لقوله تعالى "ما أشهدتهم خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم و ما كنت متخذ المضلين عضدا" (الكهف. 52). إذن ما دام الخلق غيبا علينا أن نأخذ العلم من الخالق عز و جل في خلق الإنسان.

إن عملية خلق الإنسان تبدأ مع خلق سيدنا آدم عليه السلام . لقد مر خلقه عليه السلام بخمس مراحل قبل نفخ الروح فيه.

" إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه الله من تراب ثم قال له كن فيكون " (آل عمران. 59).

"قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك، قال أنا خير منه، خلقتني من نار و خلقته من طين" (الأعراف. 12).

"قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون" (الحجر. 33).

إن الكلمات التي وردت في الآيات السابقة : التراب، الطين، الحمأ المسنون، لا تعني أنواعا مختلفة من الجنس الأصلي الذي خلق منه آدم ، وإنما هي تعني المراحل المختلفة التي مرت بها المادة الترابية في تكوين هذا الخلق المسمى الإنسان. و بعبارة أخرى إن التراب يتحول إلى طين ثم يتخمر الطين، فيصير حمأ مسنونا، وعندما يجف الحمأ المسنون يصبح صلصالا جامدا (سمعان عوض، 1988. ذكر في الشايف، 1998). و بعد هذه المراحل أخبرنا الله تعالى عن حدث عظيم و هو نفخ الروح في جسد سيدنا آدم عليه السلام لقوله تعالى "إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين (71) فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين(72)" (سورة ص).

فلو حاولنا أن نعكس عملية الخلق، كما أوحاها لنا الله في القران، لقلنا: " نحن لا نعرف كيف جاءتنا الحياة لكننا نعرف بالتأكيد كيف نموت". فحين يموت الإنسان، أول ما يخرج منه هو الروح، ثم يصير صلصالا، ثم يتبخر منه الماء ليصبح من بعد ذلك ترابا. وهكذا نشهد في الموت عملية بدأ الخلق وهي معكوسة.

إن القران الكريم يوضح لنا أن أصل الإنسان و أصل الحياة كلها من طين هذه الأرض، هذه المادة التي تدخل عناصرها في تركيب الإنسان الجسدي و تركيب الأحياء أجمعين.

لقد توصل العلم إلى أن العناصر التي يتركب منها جسم الإنسان توجد كلها في التراب، حيث أثبتت التحاليل الطبية و الكيميائية أن تربة الأرض تتركب من ستة عشر عنصرا مثلها مثل كل قطعة من جسم الإنسان (الشايف، 1998)

إن الله خلق آدم من التراب ثم نفخ فيه الروح و رفع شأنه و كرمه بالعقل، مما جعله يعلو على المخلوقات الحيوانية كلها. ثم جعل الاستمرار البشري يتم عن طريق التكاثر و التوالد و يتم ذلك عن طريق التقاء الحيوان المنوي في جهاز الرجل و البويضة في جهاز المرأة.

يقول تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، و بث منهما رجالا كثيرا و نساء، و اتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا" (النساء: 01).

" قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا" (الكهف: 37).

كما جاء في قوله أيضا "و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين" (المؤمنون: 12- 14).

ومن هذه الآيات الكريمة نستخلص أن القرآن الكريم حدد كل المراحل التي يمر بها كل إنسان قبل أن يخرج إلى الوجود.

يقول الله تعالى " و بدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه و نفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة قليلا ما تشكرون" (السجدة: 09).

إن هذه الآيات توصلنا إلى إبطال نظرية التطور لداروين حول النشوء و الارتقاء. هذه النظرية التي تجاهلت تماما وحدات الوراثة (الجينات) التي تنتقل من الأجداد إلى الآباء ثم إلى الأبناء و هكذا منذ

فجر التاريخ ينتقل المخزون الوراثي (الصفات الوراثية) من جيل إلى آخر وفقا لقوانين الوراثة. فإذا كانت هذه النظرية صحيحة، فأين هي إذن تلك الصفات التي تربطنا وورثناها عن آبائنا من أسلاف القردة ؟

الخاتمة

إن المنهج الإسلامي توصل إلى حقائق علمية لم تتعارض مع العلم، علما بأن العلم نفسه لم يتوصل بعد إلى اكتشاف كثير من الحقائق التي أشار إليها القرآن الكريم، وعلى خلاف هذا فأننا قد لاحظنا أن كتب الأنثوبولوجيا قد انتابها كثير من الأخطاء و الأكاذيب التي لم تصمد أمام العقل البشري.

إذن على الأنثروبولوجين أن يقدموا علم إنسان إسلامي من خلال النظرة الإلهية لهذا الكائن، والمتجسدة في القرآن الكريم، وعلى علماء الإنسان المسلمين أن يقدموا هذا العلم بنظرة ومنهجية قرآنية، والتي قوامها تكريم الإنسان، ورفع مكانته، فهو خليفة الله في أرضه، وحامل الأمانة الإلهية، وسيد جميع المخلوقات، والمتسلط على جميع الموجودات.

وعلى علم الإنسان أن يدرس من جديد الحقائق الأولية البسيطة في المعرفة، وهي ذاتها الحقائق الأولى في الإسلام فالله – جل ثناؤه – واحد، والحقيقة واحدة، وبنو الإنسان جنس واحد.

وهنا لابد أن نقف على أمر مهم، وحقيقة مهمة جداً ألا وهي؛ إن علم الإنسان القرآني هو العلم الذي يتخذ من القرآن مرجعاً ومنطلقاً مؤسساً لكل ما يتعلق ببني الإنسان، كل ذلك من أجل صياغة تصور جديد وحقيقي نابع من الواقع ومبعد لهيمنة النظريات المادية على هذا العلم بما يرجعه إلى حظيرته الأولية والحقيقية، وبما يحفظ للإنسان خصوصيته وكرامته وموقعه الحقيقي. وعلى هذا يبقى المنهج الإسلامي في هذا الموضوع أوضح المناهج المتبعة في الدراسات الأنثروبولوجية.

الهوامش:

1- فهيم، حسين (1986) قصّة الأنثروبولوجيا – فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة (98)، شباط، الكويت. ص 94.

2- نفس المرجع

3- موريسون- العلم يدعو للايمان. ص107- 108. د.الشايف، 1998)

4- تفسير القرطبي. محمد بن أحمدالأنصاري القرطبي. دار الفكر. العدد 20.

المراجع:

1-Darnell, Regna and editor (1978) Reading in the History of Anthropology,University of Illinois .p:259.

2-Nicholson, C (1968) .Anthropology and Education , London. P 01.

3-CAVALLI-SFORZA L, MENOZZI P, PIAZZA A, 1994. The history and geography of human genes. Princeton university Press. Princeton, New Jersey.

4-RUHLEN M, 1991. A guide to the langages of the World Stanford Univ. Press, Stanford, CA.

5- أبو هلال، أحمد (1874) مقدّمة في الأنثروبولوجيا التربوية، المطابع التعاونية، الأردن، عمّان. ص9 6- أبو زيد (*2001*)الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي(*46*) ، منشورات مجّلة العربي، الكويت.ص7

7- الجباوي، علي (1997/1996) الأنثروبولوجيا – علم الإناسة، جامعة دمشق .ص

8- الشايف عكاشة، الإعجاز و الغيب في ضوء المنهج الذاكراتي. 1998. ص 84-85

9- الشايف عكاشة، 1998. الدين في ضوء العلم. قراءة في القرآن و الانجيل و التوراة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص 103-139.

10- سليم، شاكر (1981) قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت .ص ص56

11- فهيم، حسين (1986) قصّة الأنثروبولوجيا – فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة (98)، شباط، الكويت .

12- لينتون، رالف (*1967*) الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت

13- عيسى الشماس، 2004. مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا-دراسة). من منشورات اتحاد العرب- دمشق. ص 51-52.

14- تفسير القرطبي. محمد بن أحمدالأنصاري القرطبي. دار الفكر. العدد 20.

15- خليفي الشيخ، 2014. موقف العقيدة الإسلامية من العقل. ص 137- 150. مجلة الإنسان و المجتمع. كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية. العدد الثامن.